الشرق الاستشراقي

- الاستيهام الفرنسي بمصر المتخيلة -

عبدالله إبراهيم *

نشطت المدوّنات الاستشراقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في تقديم صورة اختزالية للشرق ثقافة ومجتمعاً، صورة توافق الرؤية التي ينتظرها الغربيون، وتستجيب لتصوراتهم النمطية عنه، وتفاعل الخطاب الاستعماري والصورة الرغبوية الاستشراقية في استبعاد الأشكال الحقيقية لتلك الثقافة، وذلك المجتمع، وذمّها، وبها استُبدلت أشكال أخرى توافق تصوّراتها. ومن المؤكد أن الخطاب الاستعماري، الذي أبرز تلك الصورة، كان قوياً ومُحكماً ومؤثّراً شأنه في ذلك شأن الوسائل التي أوصلته إلى الشرق، فالامتثال للقوّة الاستعمارية رافقه امتثال لخطابها في وصف الثقافات والمجتمعات، وجرى استبعاد أشكال التعبير الأصلية كافّة التي لا تنطبق عليها الأوصاف الجاهزة والمستعارة، فهمّشت، وصارت خارج مدار الاهتمام؛ نبذت لأنّها تذكّر بمرحلة ما قبل التحديث الغربي، وجرت عبر الزمن إعادة صوغ للوعي الجماعي بما يوافق تلك المفاهيم الاستشراقية، ولم تعد الأشكال الأصلية تستأثر باهتمام يذكر، وصارت جزءاً من اللامفكّر فيه؛ لأنّها خارج نطاق الوعي، وفي مراحل لاحقة أصبحت تلك الأشكال مُعيبة وقاصرة، وثُبّتت دونيتها، ولم تستأثر بعناية لأنّها تعنى بما صار جزءاً من حقب مظلمة، طُمستْ باعتبارها عورة تحيل على تاريخ ينبغي نسيانه، يفجع به كثيرون إن هو، بمناسبة ما، شخصَ فجأة وأعلن عن نفسه، يحدث حضوره ارتباكاً غير مرغوب فيه، ينبغي الهروب منه بشكل ما، لم يعد لائقاً، وبه ينبغي أن يستبدل تاريخ مغاير. وكان الفكر الغربي الذي تبلورت ملامحه في الحقبة الاستعمارية يريد تخطّي عثراته التاريخية، ويبحث عن مرجعيّة فوجد في التدرّج الخطي الغربي المستعار ملاذاً يدفع به إلى الأمام.

ينبغي، قبل كل شيء، رصد التشابكات الأولى بين الثقافتين العربية والغربية، لتتكشّف درجة الصلات المصطنعة والطبيعيّة بين الثقافتين، لكشف الصورة التي شكلها الخطاب الاستشراقي عن الشرق، وبالتحديد الكيفية التي تشكلت بها صورة مصر في ذلك الخطاب، هذا الرصد يعنى بوصف النتائج الثقافية التي كثيراً ما يصار إلى تضخيمها لتكون الركيزة التي تقام عليها كلّ التصورات اللاحقة، وفي مقدمة ذلك نتائج الحملة الفرنسية على مصر، وهو الأمر الذي نراه تعرّض لمبالغة رغبوية دفعت بها آليات الخطاب الاستعماري إلى بؤرة الوعي بمفهوم الشرق، وصنع صورة خاصة لمصر، فقد استأثرت الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١) بمكانة رفيعة في الخطاب الشائع في الثقافتين العربية والغربية، بوصفها اللحظة التاريخية التأسيسية التي استيقظ

* أكاديمي من العراق.

فيها الشرق من خموله بفعل مؤثر غربي خارجي اقتحم هذا العالم المغلق، وفكّك روابطه التقليدية، وشرع له بوابة التقدّم، وتصاعدت الأهمية الرمزية لهذا الحدث فاعتبر حدّاً فاصلاً بين حقبتين تاريخيتين: قديمة وحديثة، فقد انتقل العرب إلى عصر النهضة فالحداثة بعد هذه الواقعة. ويبدو لنا أنّ تراكم الافتراضات القائمة على هذه الواقعة، وهي افتراضات قائمة على سلسلة متواشجة من الرغبات وليس الحقائق، وغياب النقد التاريخي الجذري لها، وإهمال المراجعة الدورية التي تستخلص من وقت لآخر القيم المعرفية من الأحداث التاريخية، ثم اللجوء إلى النتائج السهلة والسريعة، والهوس الذهني الامتثالي لمقولات أشاعتها الثقافة الغربية المتمركزة حول ذاتها، قد تفاعلت معاً لتضخيم هذه الواقعة، وإضفاء دور مبالغ فيه عليها، وتحتاج هذه الواقعة أكثر من غيرها إلى أن تُفرغ من المغزى المفتعل الذي أُلحق بها، وإعادة النظر إليها بوصفها حدثاً تاريخياً من الأحداث التي تتواتر عبر العصور، وتعرفها كثير من الأمم والثقافات. لا يمكن أن يرتهن التاريخ لخطأ.

كانت الحملة الفرنسية على مصر ذروة سلسلة من الاحتقانات المعبّرة عن سوء تفاهم، بسبب تنازع المنظورات الثقافية والدينية والسياسية الموروثة منذ العصر الوسيط بين الغرب والشرق، وبوصفها عملاً من أعمال سوء التفاهم بين عالمين معتصمين بذاتهما، فقد ظهرت في أفق رومانسي مجرّدة عن خلفياتها التاريخية الحقيقية، وبدت في أدبيات القرن التاسع عشر، عملاً فاتناً ومعبّراً عن صورة البطل الفاتح التي ترمز بشكل بليغ إلى لقاء مثير بين عجائب مصرية سرمدية، والقدر الفردي لبطل هو «نابوليون بونابرت»(١). فالخيال الرومانسي أنزل تلك الحملة منزلة الفعل الفردي لبطل يتألّق عمله التاريخي في أفق شرقي خامل، لكنه عجيب، والدمج المتقصّد بين الخمول والعجائبية، وجد أفضل تجلّياته، فيما ورثته الحملة من أدبيات خاصة بها في الثقافتين الغربية والعربية، وفي مقدمتها كتاب «وصف مصر» الذي أظهر البلاد المصرية على أنها «يوتوبيا»، كما توصل «ترونيكر» إلى ذلك (٢).

أُدخلت مصر في شبكة التصوّر الرومانسي الغربي للشرق، فأنتجتها طبقاً لتلك المعايير التخيّلية، وبهذا اختُزل الوجه الحقيقي للحملة، وطُمس وراء رغبة فرد، أرسله القدر، للنهوض بعالم ساكن من خموله الأبدي. تمّ تركيب صورة متخيّلة ومضخّمة ومستعادة لمصر بعد عقد من الزمان على مغادرتها، فـ «وصف مصر» بدأت أجزاؤه تظهر بالفرنسية في نهاية العقد الأول من القرن التاسع عشر، واستمرت بعد ذلك لأكثر من عقد آخر، تمّ خلاله تغيير صورة المكان الذي كان موضوعاً لاحتلال الفرنسيين، فمزجت مكوّنات الصورة بين التمثيل الاستشراقي له ورغبة القوة التي مثلها «نابوليون». تفاعلت على نحو فريد عناصر الرؤية الرومانسية للعالم، حول واقعة الحملة، فبدت وكأنها حقيقة شعرية تتصاعد من تفاصيلها الأساطير الفرنسية في خاتمة عصر الأنوار. لم تعد الحملة- في الخطاب الخاص بها- تتويجاً لجهود من التطلّعات الغربية الناشطة آنذاك للسيطرة على هذا المجال الحيوي، إنما فعل رمزي متّصل بشخصية بطل تاريخي. وليس مصادفة أن تُركّب لـ «نابوليون» صورة أخّاذة، بوصفه أنموذجاً للشخصية الرومانسية الغربية، بما يوافق بالضبط مقاييس الجماليات الرومانسية التي جاءت بها فلسفة التاريخ الغربية المزدهرة آنذاك في فرنسا وألمانيا، فـ «هيغل» نظر إلى «نابوليون» باعتباره روح التاريخ، لأنّ أفعاله تطابق المنظور الثقافي لتلك الفلسفة. وهكذا أسقطت تصوّرات خيالية على الحملة وقائدها، فتداخلت الأطياف، واستُبعدت مصر الحقيقية، وأصبحت مجرّد خلفية لمسرح تقع عليه أفعال بطولية غربية، يمثل الدور الرئيس فيها «نابوليون»، وكأنّ الأمر استعارة من أدب الرحلات، التي تمّت آنذاك بفعل موجّهات استشراقية، تدفعها الرّغبة والفضول للتعرّف المباشر إلى عالم شرقي مناظر لعوالم «ألف ليلة وليلة» التي كانت قد عُرفت في أنحاء الغرب قبل ذلك الوقت،

لكنّها أسهمت بدرجة كبيرة في صوغ المخيال الغربي في رؤيته للشرق، ومعلوم أنَّ كثيرا من الرحّالة كانوا يهتدون بموجّهات ذلك المخيال في زياراتهم للشرق، وفي وصفهم له. «نابوليون» نفسه اهتدى بالأدبيات الاستشراقية، التي شكّلت جزءاً كبيراً من وعيه بالشرق، فحملتُه تعبيرٌ عن الولع الفرنسي بمصر الذي يستمدُّ مرجعيته من الولع الغربي العام بالشرق في تلك المرحلة المحتدمة بالتطلّعات من تكوين الغرب الحديث. كانت مصر إلهاماً لسجلاّب الحضارة، وإحدى» العجائب التي تنتظر المستكشفين»، وسرّاً يلهب خيال الباحثين» (٣).

يُرجع «روبير سوليه» الولع الفرنسي بمصر، قبل الحملة إلى مزيج من الأسباب: الذكريات التوراتية، ذكريات الحروب الصليبية، والصورة المتخيلة الخلابة لمصر، وظل الفرنسيون في خلال أمد طويل لاحق يمزجون بين هذه الأشياء، وتقوم قصص رحلات الحجّاج بتغذية هذا اللبس بدلاً من تبديده «فالرحّالة قدّموا صورة خيالية لمصر.. إنهم يحكون عمّا يظنون أنهم شاهدوه، أو عمّا يتمنّون مشاهدته» (٤) ومثالهم «جان دي تيفينو» و«فانسيلب» و«بول سيكار» و«دي مابيه» ثم «سفاري» و«فولني» ولكن كيف تشكّلت تلك الصورة الرغبوية؟ ما جذورها؟ وكيف انبثقت في المخيال الغربي، وبخاصة الفرنسي، وتنامت وسيطرت بمرور الزمن على الفضاء العام للسياسات الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر؟.

في عام ١٦٧٢ وصل الفيلسوف الألماني «ليبنتز» (١٦٤٦-١٧١٦) إلى باريس، وكتب مذكّرة إلى الملك الفرنسي لويس الرابع عشر يقترح تجريد غزوة خاصة إلى بلاد الفراعنة، ومع أن الملك الفرنسي لم يقابل الفيلسوف، لكن توصيته عرفت في الوسط السياسي داخل أروقة البلاط الذي يعيش احتقانات الصراعات الدولية في النصف الثاني من القرن السابع عشر. كتب «ليبنتز» بأسلوب إغرائي «هذا هو أضخم مشروع يمكن تصوره، والأكثر سهولة في تنفيذه» لأن البلاد المصرية «هي الأفضل موقعا من أجل السيطرة على الدنيا، وعلى البحار» وهي لا تنتظر غير«وصول جيش تحرير لكي تنهض» وداعب الحسّ الديني المتشدّد للملك، فقال «كانت مصر في قديم الزمان منبعا للعلوم، وعريـنا لمعجزات الطبيعة... فلماذا يجب على المسيحيين فقدان هذه الأرض المقدّسة التي تربط آسيا بإفريقيا، وتتوسط كحاجز بين البحرين الأحمر والمتوسط، وتعتبر مستودعاً لغلال الشرق، ومخزناً لكنوز أوربا والهند؟ «وبالسيطرة عليها» سيؤمّن امتلاك الهند، وتجارة آسيا، والسيطرة على الكون» (٥).

وصية الفيلسوف الشاب، فتحت الأفق، أمام احتمالات المستقبل، وأوقدت رغبة الوسط السياسي، في ظل التنازعات الاستعمارية لاقتسام العالم بين إنجلترا وهولندا وأسبانيا وفرنسا، فـ «ليبنتز» اقترح باقة من الأسباب المتلازمة التي تغري الجميع بقبولها، لكن لويس الرابع عشر، اعتبر أن إحياء البعد الديني لغزوة مثل هذه، فات أوانه، فهيبة فرنسا جُرحت بأسر لويس التاسع، في الأرض المصرية، منتصف القرن الثالث عشر. بدا وكأن الملك عازف عن التفكير بمحاولة جديدة. الملك اللاحق، لويس الخامس عشر، لم يبد رغبة كسلفه أيضا، لكن تنامي الصراع مع بريطانيا المجاورة التي راحت تكتسح الشرق، وظهور بدايات انحلال الإمبراطورية العثمانية، أحيا الأمل مجددا، في عهد لويس السادس عشر، ففي هذه الفترة أدرجت قضية مصر علي «الأجندة» الفرنسية بصورة جدية. أرسلت بعوث سرية إلى مصر لاستطلاع إمكانية تحقيق ذلك، وعشية الثورة عام ١٧٨٩ أصبحت مصر شاغلا لا يخفى من شواغل المخيلة الفرنسية، على كل المستويات.

وسط هذه التطلعات المتنامية كان أدب الرحلات ينتج صورة جذابة ومغرية لمصر، وسيكون لكتابات «فولني» و«سفاري» تأثير السحر على كثير من الفرنسيين. أسهمت تلك المرويات في تأثيث الرغبات العامة بكثير من الوعود. نشر كتاب «سفاري» في عام ١٧٨٦ بعنوان «خطابات عن مصر» وهي خطابات

متوهجة كتبها «سفاري» الذي أمضى عشرين سنة في مصر، وتبحّر في شؤونها، وعرف العربية، وتعلّق بالدراسات الإسلامية، فترجم القرآن والسيرة النبوية. كتابه بعث اشتياقاً خاصاً لبلاد ساحرة وغامضة ومتمّعة، ركّز على مكوني الطبيعة والإنسان، هذه الثنائية الفاعلة في الأدبيات الرومانسية، وحينما يتوغّل القارئ في تضاعيف الكتاب، يجد نفسه متماهيا مع عالم أخاذ بمكوناته الشفافة والأثيرية، كأنه يقرأ للرومانسيين: الفريد موسيه، شلي، بايرون، غوته. جاء في وصفه للطبيعة المصرية وللمصريين، ما يأتي «كم هو ساحر أن يقوم الإنسان باستنشاق الهواء العليل تحت هذه الخمائل، وعلى شط جدول المياه الذي يرويها! ففي هذا المكان يعتقد الرجل التركي الممسك بغليون طويل من الياسمين المعنبر بأنه قد انتقل إلى حدائق النعيم الموعودة في القرآن (= الجنة)... وفي هذه الحدائق نجد أيضا فتيات من جورجيا قام آباؤهن المتوحشون ببيعهنّ كجوار، وقد خلعن الحجاب الذي يضفي عليهن الاحتشام المراعى في العلانية، وحين تكون هؤلاء الفتيات متحرّرات من كل إكراه، فإنهن يرقصن أمامهم رقصات خليعة، ويغنين ألحانا عذبة، وينشدن قصصا شعبية تصور عاداتهم ومباهجهم» أما القرويات اللائي يهبطن في الماء ليغسلن الملابس في الترع، فلسن أقل إثارة «يغتسلن جميعا في الترعة، ويتركن جرّاتهن وملابسهنّ على الضفة، يدعكن أجسادهن بطمي النيل، ويلقين بأنفسهن بين الأمواج ليلعبن فيها»(٦) . هذه الصورة للنساء المباحات ستلعب دوراً في تأجيج رغبات جنود الحملة الفرنسية وضباطها، وهم في طريقهم وسط البحر. وسنرى أن الضابط الفرنسي «مواريه» يصاب بخيبة أمل كبيرة لأنه وجد مصر والمصريات على غير ما وردا في كتاب «سفاري».

كتاب « فولني» الذي صدر في عام ١٧٨٧ بعنوان «الرحلة إلى مصر وسوريا» اتجه إلى ناحية أخرى، قدّم عرضا موسعا لمشاهدات حية تبين أن هذه البلاد بأمس الحاجة لقوة خارجية تنتشلها من ظلامها، وتضعها تحت الضوء، كما كانت زمن الفراعنة، وكان جنرالات الحملة الفرنسية يقرأون كتاب فولني باعتباره «كتابهم المفضل» (٧) وهو أقرب الكتب إلى نفس نابوليون الذي التهم الكتاب، والتقى المؤلف، وتناقش معه في جزيرة كورسيكا. كان الإسكندر الأكبر يهيمن على فكر نابوليون الذي كان مقتنعا بأنه إذا كانت السلطة تكمن في باريس فإن العمل الكبير يمكن إنجازه في الشرق، وعرف عن نابليون أنه شديد التعلّق بالكتاب(٨) . صيغت الصورة الكلية لمصر كمكان يمكن ارتياده لأسباب كثيرة، يجد كل طرف فيه ما يحتاج إليه، ويبحث عنه في غزو هذه البلاد: يوجد ما يرضي جميع الأذواق، يرضي السياسيين، والعسكريين، والمستكشفين، والعلماء، والفنانين، ومحبي الإنسانية الذين تدفعهم الشفقة على بلد انتهى في الحضيض بعد إن كان في ذرا المجد، هذا بالإضافة إلى جميع أولئك الذي تسحرهم هذه البلاد بغموضها أو بحريمها(٩) .

عملت أدبيّات الاستشراق على إنتاج مصر بصورة بلد يسترخي بكسل على ضفاف النيل ينتظر الفاتحين والباحثين والمغامرين، والفكرة التي راودت «نابوليون» هي استيعاب مصر ثقافيا، فاصطحابه للعلماء كان يخدم هذا الغرض، وكانت تراوده فكرة أخرى أكثر شمولا لم يسمح له الوقت بتنفيذها، وهي إرسال صفوة من مئات المصريين إلى فرنسا، للتشبّع بقيم الحضارة الفرنسية، ثم إعادتهم إلى مصر، لمشاركته في حكم البلاد، ومُلهمه في ذلك «لإسكندر الأكبر» في غزوه لبلاد فارس. وقبل أن يحطّ «نابوليون» برحاله في مصر، كان يُغري جنوده، بالطريقة ذاتها التي كان يغري بها «كولومبس» بحّارته قبل ذلك بثلاثة قرون، بأنّ كلا منهم سيحصل على ثروة من الغنائم تمكّنه من شراء ثلاثة هكتارات من الأراضي في فرنسا إن هو أبلى في الحرب (١١) . وكان كولومبس يَعد جنوده بوعود مماثلة: الأراضي والذهب والثروات الأخرى(١٢) . تتداخل رغبة التملّك مع المغامرة والاكتشاف والسيطرة في كل مشروع ذي طموح

استعماري.

ليس من التمحّل القول بأنّ رومانسية القرن التاسع عشر في الأدب والحياة، كانت تركت أثراً واضحاً في شخصية «نابوليون» وتطلّعاته، فقد كان حالما كبيراً، إلى درجة يظهر الآن في الوعي الغربي كبطل مغامر، وفاتح جريء، أكثر منه رجل دولة؛ لأنه استجاب للشعور البديل الذي طرحته الرومانسية النابضة بالحركة والتغيّر ردّا على الصرامة الكلاسيكية في العلاقات والتقاليد والأدب، وقام في الوقت نفسه بتمثيل كل ذلك، فإلى جانب حرصه على حمل كتب الرّحلات الشرقية، كان حريصا، وهو يتوجّه إلى مصر، على اصطحاب نسخته الشخصية من رواية «أشجان الشاب فرتر» للشاعر والأديب الألماني «غوته» (١٧٤٩-١٨٣٢) التي صدرت في عام ١٧٧٤، وكان «غوته» كتبها وهو في الخامسة والعشرين من عمره، واطّلع عليها «نابوليون» في شبابه، وعنايته بهذه الرواية لها دلالة خاصة في سياق حملته على مصر، فقد أحدثت تلك الرواية هزّة عميقة في وجدان الشباب الأوربي وقت صدورها، وبخاصة بعد اكتمال صورتها النهائية التي عرفت بها بعد ذلك، حينما أعاد «غوته» النظر فيها سنة ١٧٨٢ بصورتها المعروفة بها الآن، وبغضّ النظر عن الولع الشخصي لـ «غوته» بالشرق، فإنّ هذه الرواية التي تحتفي بالطبيعة، شرعت أفق الرومانسية أمام الأدب الغربي، إلى درجة مثّلت فيها دورا مزدوجا، فهي من ناحية قامت بتمثيل الذوق الرومانسي الصاعد للشباب الأوربي، ومن ناحية ثانية كانت، بالطموحات الحبيسة لبطلها الشاب، تُعدّ بيانا تأسيسيا لما صار يُعرف بـ «ظاهرة فرتر» في الأدب والحياة، تلك الظاهرة التي تصوّر غليان الأحاسيس والعواطف والأفكار والطموحات في نفوس جيل لم ينل فرصته لا في الحب بصورة طبيعية ولا في الحياة، وعلينا ألاّ نغفل صورة النموذج الذي طرحته الرواية في وقت كان «نابوليون» في مطلع شبابه، فالرواية في نهاية المطاف تصوّر مغامرة شاب قيّدته ظروف الواقع على خلفيّة من حب الطبيعة والتغنّي بها، إلى درجة المبالغة، الأمر الذي جعل «غوته» فيما بعد يحاول التخلّص منها كمرحلة أدبيّة في حياته، بسبب من التأثير الكاسح للنصّ في أوروبا على القرّاء، لأن تجربته الأدبية نضجت، وتخطّى هو تماما الحالة التي كتب فيها الرواية.

يمكن القول، في ضوء تعلّق «نابوليون» بهذه الرواية، أنّه كان يتماهى في لا وعيه مع «فرت»، لكن ببعد وغرض مختلفين، فإذا كانت الحياة الألمانية كبّلت البطل الشاب في الرواية، فإنّ الثورة الفرنسية، التي قدّمت بديلاً برّاقاً وعريض الآمال للعلاقات التقليدية في أوربا، وفي فرنسا بوجه خاص، منحت «نابوليون» دور المغامر الحقيقي الذي بدل أن يعيش أحلاما حبيسة كما فعل «فرتر»، فإنّه يقوم بها على رأس جيش من الشباب الثائر المسكون بروح المغامرة، يمخر به عباب أوربا القديمة، ويهزّ عروشها، ثم ينبثق من وسط ذلك الحلم بالشرق بوصفه فضاء للفعل والحركة والتجدّد الذي يقوم به بطل استثنائي، الشرق بالنسبة له تمرّد على النمطية السائدة. وليس هذه الاستشفافات بغريبة على عالم الأدب والحياة، فقد كانسجان سوريل بطل راوية «الأحمر والأسود» لـ «ستندال» التي ظهرت في عام ١٨٣٠ بعد وفاة «نابوليون» بأقل من عشر سنوات، يحاكي خياليا شخصية البطل الفرنسي، وأزمته متأتّية من أنّ الواقع لا يتيح له بلوغ كمال النموذج الذي يحاكيه، وعلى هذا يمكن القول مجازا إنّ «فرتر» و«نابوليون» وسجان «وريل» شخصيات تنتصب كالمرايا المتقابلة، فتتمرآى كل شخصية في الأخرى، فتتكسّر، عبر التمثيل المتبادل، الحواجز فيما بينها سواء كانت خطابية أو واقعية.

كان «نابوليون» تشبّع بفكرة دور البطل الذي ألقاه إليه التاريخ، وينبغي عليه القيام به على أفضل وجه، ففي عالم مكتظّ بالصراعات، وهو أورربا، كان لا بد من خوض مغامرة أكبر يستعيد بها ذكرى «الإسكندر الأكبر»، فالتماهي مع السلف الجذّاب الذي ضخّم «بلوتارك» وأضرابه من المؤرّخين القدامى والمحدثين

صورته،كان سلوكاً نابوليونياً معروفاً. وتورد «مدام دو ريموسا» في مذكراتها أنّ «نابليون» أسرّ لها بالآتي: «في مصر، وجدتُ نفسي متحرّراً من كوابح حضارية مزعجة. لقد كان بوسعي أن أحلم بأي شيء، وأن أرى وسائل تحقيق كل ما حلمت به. فسوف أؤسّس ديانة، وسأجد نفسي، على طريق آسيا، راكباً فيلاً، وعلى رأسي عمامة، وبين يدي قرآن جديد أؤلّفه على هواي، وسوف أجمع مشاريعي من تجارب وخبرات العالمين، نابشاً لحسابي ملكوت جميع التواريخ والقصص، مهاجماً الجبروت الإنجليزي في الهند، ومستعيداً بهذا الفتح ربط صلاتي مع أوروبا العجوز. لقد كان ذلك الوقت الذي قضيته في مصر أجمل أوقات عمري؛ لأنّه كان الوقت الأكثر مثالية» (١٣).

حاول «نابوليون»، أن يمثل دوراً مركباً من دورين: دور «الاسكندر» الفاتح ودور «كولومبس» المكتشف، وقد عملت رومانسية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على تثبيت الخلفيّة الأخلاقية لهذا الدور، فأضفت على الحملة معنى متّصلاً بذلك السياق، لكنّها شأنها في ذلك شأن الحملات الإسبانية والبرتغالية والإنجليزية والهولندية التي سبقتها إلى شتّى أرجاء العالم، كانت تتخفّى وراء شعارات ثقافية، من أجل التعبير عن تطلّعات ذاتية، متصلة بالهوية الغربية المتشكّلة حديثاً، وقوامها إثبات الأنا بتدمير الآخر، وحول هذا الموضوع لم يختلف فلاسفة التمركز الغربي ومؤرخوه من «مونتسكيو» و«هردر» و«فيكو» و«كوندرسيه» إلى «هيغل» و«ماركس» و«إنجلز»، فالتشوّش والعماء المؤقّت يرافقان كل تشكّل حضاري جديد منغلق على نفسه (١٤).

أسقطت فلسفة التاريخ الغربية دلالات جاهزة على حملات الاستكشاف والاستيطان واعتبرتها حملات تنويرية، وبذلك قدّمت تفسيرا يوافق منظورها، يطمس الدوافع الحقيقيّة ويستبعدها، ويخفض من قيمتها، وبها يستبدل أسباباً أخرى تؤكّد أنّها جزء من الحتميّة التاريخيّة، وعلى هذا اعتبرت الحملة الفرنسية من نواح كثيرة، ولدى عدد لا يحصى من الدارسين، الحدث الذي ينبغي أن يؤرّخ به واقعياً ورمزياً الإعلان عن بداية التحديث في الجزء العربي من الشرق، وولادة صورة جديدة لمصر، ذلك المكان المنظور إليه بوصفه عالماً هامداً وساكناً وملحقاً بالاستبداد العثماني، وها قد هبّت عليه رياح الثورة الفرنسية لتزيح عنه الفساد والتعفّن، وتطهّره من التخلّف والجهل والاستبداد. وكما كان «ماركس» سوّغ فلسفيّاً التورّط الإنجليزي في الهند، وشجّع «انجلز» التدخّل الفرنسي في الجزائر (١٥)، فإنّ الأدبيات الخاصة بالحملة الفرنسية أضفت شرعيّة ثقافيّة عليها، فهي صدمة حداثة نذرها التاريخ لكسر نسق مقفل، وفي إثرها تحرّر الشرق من أوهامه وخموله. إنّها، بحسب تلك الأدبيّات، المأثرة الفاصلة بين حقبتين: حقبة موت وحقبة حياة، فبها أعلن الشرق القريب عن ولادته الحديثة.

كانت الحملة الفرنسية في حقيقتها رحلة خاطفة إلى الشرق، فقد وصلت الجيوش سرّاً إلى مصر، وغادرتها مخفورة بالأسطول الانجليزي، ولم يُعلَن رسمياً لا عن لحظة الوصول ولا عن لحظة المغادرة إلا فيما بعد. وتكشف وثائق الحملة أنّ القوات الفرنسيّة كانت محاصرة في مصر، وقد انقطعت عن فرنسا؛ فالبحر المتوسّط ومُعظم المناطق المجاورة كان تحت سيطرة القوات الإنجليزيّة والعثمانيّة، وداخل مصر لم يرم الفرنسيّون طوال السنوات الثلاث سلاحهم، وحتى المادة الأوليّة التي قام علماء الحملة بجمعها عن مصر تمّت بسرّية وبحماية محكمة، وهُرّبت إلى فرنسا، ثم استعيدت ذهنياً في ظروف مختلفة، مما أضفى عليها طابعاً رومانسياً مشبعاً بالحنين والرغبة وحس المغامرة الفردية، ولا تكشف الوثائق- التي عرضها بالتفصيل «هنري لورن» و«مواريه»- عن أي تواصل وتفاعل حقيقيين بين الفرنسيّين والمصريّين، ففضلاً عن التمرّد اليومي والاحتجاج المتواصل، فإنّ مصر لم تخضع بأجمعها أبداً للنفوذ الفرنسي، فما أن تُقمع ثورة إلاّ ويندلع تمرّد.

وبالإجمال فُجع الفرنسيون والمصريون بهذه

الحملة على حد سواء، إذ لم تكن للفرنسيين إلاَّ مغامرة مُهلكة، ما سمحت لخيلاء الفاتح أن يتفتّح، ولم تكن للمصريين إلاَّ فصل من مأساة بدأت مع الفرنسيين واستمرّت بعدهم. وعلى هذا يصعب الحديث عن آثار فرنسية مؤكّدة وعميقة وفاعلة إلاَّ استناداً إلى الرغبة وليس مطابقة للحقيقة؛ فالحضور العسكري الفرنسي والجلاء الخاطف الذي أعقبه، وما رافقه من صراع دموي وحصار وتهديد، لم يسمح بحدوث تفاعل مفيد بين المصريّين والفرنسيّين،كما رُوِّج لذلك في أدبيات الحملة فيما بعد. والتقارير اليومية والتفصيلية التي كان دوّنها ضبّاط الحملة، وغطّت كلّ الأحداث الصغيرة والكبيرة، باعتبارها وثائق رسمية، لا تعمّق لدى الباحث أي إحساس بالمشاركة بين الطرفين الفرنسيّ والمصريّ، والترتيبات التي أجراها «نابوليون» - وكثيراً ما يشار إليها- ذات طبيعة أمنيّة وقائيّة يُراد بها ضبط الأهالي، وغالباً ما كانت مُخادِعة استغلّت الشعور الديني من جانب، وكُره المماليك من جانب آخر. فادّعاء «نابوليون» الإسلام، واستخدام المطبعة في نشر الأوامر العسكرية، واستدعاء الأعيان، وتشكيل المجلس الاستشاري(=الديوان) ، كانت تهدف، في تلك الظروف القاتمة والقلقة، إلى إحكام السيطرة من جهة، وامتصاص الغضب من جهة ثانية، وكلاهما متلازمان في كل فعل استيطاني. إذا كان التاريخ التقليدي مهووساً بالحديث عن التأثير والتأثر بطريقة مبالغ فيها، فمجاراة له وليس موافقة على فرضياته، يمكن القول بأن ثمرة الحملة كانت فرنسية وليست مصرية، فقد أطفأت الولع الفرنسي بمصر، وانتجت معرفة فرنسية شاملة بمصر.كانت مصر موضوعا فرنسيا، وينبغي ألا تُخلط النتائج، فلم تجن مصر شيئا ملموسا من الحملة، ولا ينبغي مدّ الفائدة الفرنسية لتشمل مصر. باختصار كانت مصر رهانا فرنسيا يستجيب للأدوار السياسية والرغبات الخيالية.

ثمة شاهد عيان يستبطن لنا الأحداث من الداخل، هذه المرّة، ويقدم لنا تفسيراً مختلفاً عما أشاعته الخطابات الخاصة بالحملة، وهي ملاحظات عميقة لشاهد عيان، انخرط بصورة كلية في الحملة منذ البداية إلى النهاية. إنه النقيب «جوزيه ماري مواريه» الذي حرص بدقة بالغة على توثيق مذكراته ويومياته منذ غادر فرنسا، مع الحملة، إلى أن عاد إليها، بعد ثلاث سنوات، وميزة هذه المذكرات أنها تتضمن تجارب ذاتية مفعمة بالصراحة والمباشرة، ومواقف معبرة عن وجهة نظر صاحبها فيما يخص المصريين بشكل عام، ومجريات أحداث الحملة بشكل خاص، إلى ذلك فـ «مواريه» مشبع بقيم الثورة الفرنسية، وقد انخرط في الحملة إيماناً منه بشعار الثورة، فظهر في البداية مزهوا بدوره، ودور رفاقه، منافحاً عن القيم الحضارية التي يؤمن بها، وانتهى مثلهم منكسراً على نحو يثير الرثاء، بعد أن فشلت الحملة، وصار هاجس الجميع، بما فيهم القائد العام هو الطريقة التي ينتزعون فيها أنفسهم من المستنقع المصري، بأقل الخسائر الممكنة، وقد اعترف «مواريه» أنه لم يعد إلى الأراضي الفرنسية سوى ربع المشاركين في الحملة، بعد أن دفعهم هوس نابوليون بالمجد إلى التهلكة.

مذكرات النقيب «مواريه» تكشف جانباً سرياً من الحملة، لم تسلط الأضواء عليه، إنه لا يؤرخ فقط للحملات العسكرية داخل مصر، إنما يتحدّث من الداخل كأحد المشاركين في العمليات العسكرية، وشأنه في ذلك شأن أي ضابط شاب متحمس فقد كان يمتلئ عجباً بنفسه مع كل انتصار، ويتلوّى أسفاً وحزناً مع كل خسارة، لكن نبرة اليأس تضربه في الصميم منذ اليوم الأول لوجوده على الأرض المصرية، فحينما يغادر «مواريه» مدينة «طولون» رفقة نحو ثلاثين ألفا من نخبة الضباط والجنود، فضلاً عن البحارة والعلماء والفنانين والقائمين على خدمة الجيش والضباط، لا يعرف هو ورفاقه الجهة التي تقصدها الحملة. تذهب بهم الظنون مذاهب شتى، هل هم في طريقهم لغزو سردينيا، أم صقلية، أم مالطة، أم أنهم سيتوجهون إلى بريطانيا ؟. قلة اعتقدت أنهم متجهون إلى مصر، ومنها إلى الهند الشرقية للانتقام من الإنجليز، تلك

الاحتمالات «أرّقت الأذهان، ووضعت الرأي العام في حالة من عدم اليقين» (٢٦). وبتقدّم الأسطول، ومروه بجزر البحر المتوسط، واحدة إثر أخرى، تتضح أخيراً، بعد السيطرة على مالطة، الوجهة النهائية للحملة، وهي مصر. ويأتي خطاب نابوليون يوم ١٢ يوليو ١٨٩٨ ليؤكّد ذلك، لكن الجنرال، الذي يبدأ منذ هذه اللحظة بالوعود التي لن تتحقق، يشنّف آذان الجند الحاملين قيم الثورة، قائلاً «أيها الجنود، ستقومون بغزوة سيكون لها أبلغ الأثر على الحضارة والتجارة في العالم» (٢٧).

منذ هذه اللحظة ترتسم في ذهن النقيب «مواريه» صورة مصر المتخيلة، الصورة المستحضرة من المرويات القديمة، ومن مدونات الاستشراق والرحلات. الهاجس للأول للجنود والضباط، و«مواريه» يعبر دائماً بصيغة الجمع عنهم، هو الاستيهام الجنسي بالمصريات، استيهام يكتسحهم ويهزهم، ويدفع بأحاسيسهم ورغباتهم إلى الكشف عن نفسها بجلاء، فيعجلوا للقاء الفاتنات المصريات «عقدنا كلّ آمالنا على رحلتنا إلى مصر، فكم ألهبتْ قصص التاريخ خيالنا، بجعلها كل فتيات هذا البلد في سحر وجاذبية كليوباترة» (٢٨). تماهى الجميع مع دورين خاص وعام، فراحوا، من جهة أولى، يتصوّرون أنهم سيقومون بدور «أنطونيو» وينتظرون كسلفهم الروماني أن يقعوا في أحضان المصريات الشهيات سليلات كليوباتره. ومن جهة ثانية، دور عام، يمثله شعور مشترك رسمه القدر يقوم الفرنسيون بموجبه بدور المقدونيين والرومانيين والصليبيين، يعبر «مواريه» عن ذلك «ليتنا نصل سريعاً، فكم نشعر بشوق كي نطأ بأقدامنا هذا الثرى، مثلما فعلت من قبلنا جحافل الجيوش المقدونية والفيالق الرومانية. هذا التراب الذي شهد معارك الحروب الصليبية المقدسة. كم نتوق للتفوق على الأبطال الوثنيين، وللثأر لدماء المسيحيين أسلافنا» (٢٩).

تمتزج الرغبات الاستيهامية الجنسية، بالأدوار الخيالية المحاكاتية للقدماء، وبالرغبة بالثأر والانتقام للأسلاف. لكن الآمال تنقلب حال الهبوط على الأرض المصرية، يستبق «مواريه» الأحداث في مذكراته الشائقة، فيفضي حالا بأثر الصدمة «كان وصولنا إلى مصر، وإقامتنا فيها، سببا في إفاقتنا من أوهامنا...وكم لعنّا الوصف المخادع لمؤلف كتاب «خطابات من مصر» (٣٠). ستقوم الأحداث التي سيشارك فيها «مواريه» إلى النهاية بتدمير الدورين الخياليين اللذين حلم بهما شأنه في ذلك شأن الآخرين. لن يجد شيئاً مما تمنّاه وحلم به. شعر أنه ضحية خطأ في الفهم، وخداع في الهدف. هذان الدوران اللذان داعبا خيال أفراد الحملة، يسكت عنهما تماماً الخطاب الاستعماري ، لكنه يرسم أفقاً معتماً للتورط الفرنسي في مصر، بما يحول دون القيام بأي عمل سياسي وثقافي ذي قيمة حقيقية، وكل ما يرتسم في الأذهان هو سلسلة الخدع التي يمارسها الجنرالات لكسب ودّ الأهالي الثائرين. بتركيز مواريه على العمليات العسكرية، والتنكيل المتواصل بالمصريين، وشكاوى الجنود الذي وجدوا أنفسهم مرميّن في أرض غريبة وغامضة، لا تطابق المتخيلات السردية الجاهزة، يفتح «مواريه» الأفق على عدم توافّر أي سياق يسمح بالانصراف إلى عمل مفيد للمصريين.

قدمت مذكرات «مواريه» تاريخاً مصاحباً للأحداث، كشفت الجانب الآخر من الحملة، الجانب الذي أخفته الأدبيات الرومانسية والاستشراقية، وطمسه الخطاب الاستعماري لأنه انصرف إلى تضخيم صورة مجموعة من الفتيان المشبعين بقيم الثورة الفرنسية، الحاملين لمشعل الحرية والمساواة والعدالة لكي يبددوا الظلام المخيم في بلاد النيل. تلك الأدبيات مهووسة بأدوار الأبطال، ومتابعة نشواتهم الفردية، وصنع حبكات بطولية رومانسية مجرّدة عن سياقاتها العامة، فيما يجري تجاهل الوقائع الكبرى التي يخوض غمارها القتلة والضحايا معاً. حينما تذكر الحملة الفرنسية على مصر، ينصرف الاهتمام إلى نابوليون. فتلك الحقبة، هي امتحان اختباري ناجح لإمبراطور المستقبل.■

هوامش

١. هنري لورنس، الحملة الفرنسية في مصر:بونابرت والإسلام، ترجمة بشير السباعي، القاهرة ، ص ٧

٢. م . ن . ص ٦٩٤

٣. جان لاكوتير، شامبوليون: حياة من نور، ترجمة نبيل سعد، القاهرة،ص٣٢

٤. روبير سوليه، مصر: ولع فرنسي، ترجمة لطيف فرج، القاهرة،ص١٥

٥. م.ن. ص٢٥

٦. م.ن.٢٧

٧. م.ن.ص٢٧

٨. م.ن.٣٢. والحملة الفرنسية في مصر.ص٣٢ ٩. م.ن.ص٢٨

١١. والحملة الفرنسية في مصر ص٨٥

١٢. عبدالله إبراهيم، المركزية الغربية، بيروت، ص٢٤٤

١٣. لحملة الفرنسية في مصر، هامش ص٦٤ - ٦٥

١٤. المركزية الغربية، للتفصيل ينظر ص١٣-٤٩و ص٢٢٩-٢٧٥

١٥. م.ن.ص ٢٦٦-٢٧٠

١٦. أندريه ريمون، المصريون والفرنسيون في القاهرة: ١٧٩٨-١٨٠١ ترجمة بشير السباعي، القاهرة، ص٩٣و٩٤و٩٥و٩٦

١٧. م.ن.ص٩٧

١٨. م.ن.ص٩٩

١٩. م.ن. ص١٠١

٢٠. م.ن. ص١٢٧

٢١. عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت ، ج٢ ص٣١٧و٣١٨

٢٢. المصريون والفرنسيون في القاهرة، ص١٣٧-١٣٨

٢٣. م. ن. ص٣٣٢

٢٤. محمد مصطفى بدوي(محرر) تاريخ كيمبردج للأدب العربي: الأدب العربي الحديث. أنظر الترجمة العربية، جده ، ص٥٠

٢٥. جوان كول، الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط، ترجمة عنان علي الشهاوي، القاهرة، ص٤١

٢٦. جوزيف مواريه، مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر، ترجمة كاميليا صبحي، القاهرة، ص ٢٠

٢٧. م. ن ٢٦

٢٨. م. ن ٢٥

٢٩. م. ن ٢٨

٣٠. م. ن ٢٥